

في المقالة

Anthologie de la littérature arabe contemporaine, II, Les Essais, par Anouar Abdel-Malek. Editions Les Seuil, Paris, 1965

خطيرة الشأن مفيدة . على ان هذه البرجوازية ما عتمت ان حلت محل الاجني في امتلاك الاراضي الواسعة ووسائل الانتاج . عندها ثارت الطبقات العاملة فنشأت النقابات والاحزاب ، وكان ذلك في اعقاب الحرب العالمية الاولى . اما المرحلة الثانية للحركة الوطنية العربية فكان انطلاقتها بعد الحرب العالمية الاخيرة ، وكانت مظاهرها كما يلي : دول وطنية مستقلة ؛ اشتراكية وراء جميع الحركات ؛ اشتراكية تعضد النهضة الوطنية .

هذا من حيث المظهر السياسي . اما من حيث التفكير فان العالم العربي قد شهد ويشهد تيارين متكاملين حيناً ومتعارضين اكثر الاحيان . التيار الاول هو التقليد الاسلامي ، او الترسخ الاسلامي ، بمعنى العودة الى مصادر الدين للحوار مع الازمنة الجديدة . والتيار الثاني هو العصرية الليبرالية التي تستند الى الحضارة الغربية .

بعد الحرب العالمية الاولى استقلت بعض البلدان العربية استقلالاً شكلياً فعبزت عن حل مشكلات النمو الاجتماعي ، لذلك عمدت اما الى الاسلام واما الى الماركسية واما اليهما معا لحل هذه المشكلات . فكان الترسخ الاسلامي على وجهين : تقليدي محافظ ، او تقدمي ليبرالي ينهج نهج اوربا او ينظر الى الاشتراكية نظرة قومية صرف .

على ان بين القومية الاوربية والقومية العربية فروقا عديدة . فالقومية الاوربية سلبية هي ، بمعنى الانطواء على الذات ؛ وهي ايجابية ، بمعنى التوسع على حساب الآخرين . بعكس القومية العربية التي التي لا تنطوي على نفسها لانها بحاجة الى غيرها كي تطرد قوى الاحتلال ، ولا تعمل على التوسع لانها تكتفي بمداهم الحيوي .

تستند هذه القومية الى الوحدة العربية التي تصف ذاتها فوق مدماكين متكاملين ، هما الشخصية المتميزة التي كانت لاكثر الاقطار العربية قبل الفتح

« مختار الادب العربي المعاصر » . انه عنوان السلسلة المثلثة الحلقات التي تصدرها تباعا ، اي كل سنة حلقة ، دار النشر الفرنسية (لوسوي) . فقد صدرت الحلقة الاولى منذ عام تقريبا بعنوان « القصة والرواية » ، ثم صدرت الحلقة الثانية منذ اسابيع بعنوان « المقالات » ، وستصدر الحلقة الثالثة « الشعر » في نهاية العام القادم .

حلقات ثلاث ، او مجلدات ثلاثة ، غايتها ايقاف الفرنسي اللسان على صفوة ما عندنا في ادبنا الحديث ، شعرا ونثرا . غاية حميدة نصفق لها يوم نعرف ان دار (لوسوي) هي التي تتعدها ، ويوم نعرف ان الاستاذ جاك بريك هو الذي يشرف عليها . فقد كانت المقدمة التي صدر بها المجلد الاول آية في الشمول والتعميق ، تتحرى دراسة الشخصية العربية كما تتحرى الاطلالة الكاشفة على ادبنا وتفكيرنا جميعا .

من حق المجلد الذي بين ايدينا علينا ان نتفحصه على ضوئين ، ضوء مقدمته وضوء نصوصه .

المقدمة خمس وعشرون صفحة مرصوفة . عنوانها : مدخل الى الفكر العربي المعاصر . ان في تلخيصها تلخيصا للمتجه الذي يتجه المؤلف . قال : غاية هذا الكتاب هي الوقوف على ما ينطوي عليه الفكر العربي الحديث من نظرات واعتبارات . والعالم العربي يؤلف وحدة وطنية ثقافية تستند الى عاملين . العامل الاول ثقافي هو ، مداره جودة اللغة العربية وامتيازها . واذا كانت العربية مشتركة بين بلدان عديدة فان هذا الاشتراك هو دلالة على وجود ثقافة مشتركة ايضا . اما العامل الثاني فتاريخي وسياسي ، مداره الحركة الوطنية العربية . لهذه الحركة الوطنية مرحلتان مرت بهما .

الاولى من اوائل القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية . مظاهرها : اقطاعية ، ثم رأسمالية زراعية تصارع قوى الاحتلال ، ثم برجوازية

العربي ، ثم الوحدة الجامعة ، وحدة اللغة والدين والتاريخ والنضال ضد الاستعمار .

وعلى أي حال ، فلا مجال عندنا للتفكير الجاني وللاشتغالات الأدبية التي تنتسب إلى نظرية الفن للفن . لا مجال عندنا لغير ما هو اجتماعي عربي اشتراكي . أن للنظريات استطلاعة في الواقع ، وأن التطبيقية هي ديدنا في جميع ما نقول ونعمل . يدور كل شيء عندنا حول النهضة القومية ويتلاقى سلم قيمنا بالحركات الاشتراكية جميعا . فكيف العمل إذاً على التوفيق بين مناقبية الربح ومقتضيات النهضة القومية ؟ أننا ننقل من القرون الوسطى إلى العصر النووي ، من الاقطاعية إلى الاشتراكية ، من العبودية إلى النهضة . وإذا كان الأمر كذلك فمن الخطأ القول بأن انساننا اليوم هو انسان التوجع والحقد والغیظ . انساننا هو انسان العودة إلى ذاتنا السلبية وأرجاعها إلينا كما هي عليه في طبيعتها الأصلية .

هذه المقدمة المكثفة التي لخصنا أهم ما فيها هي المصباح الذي على ضوءه ندخل إلى تضاعيف الكتاب ، فنقع على تسعين نصا لأربعة وثلاثين مفكرا ينتمون إلى مصر ولبنان وسوريا وفلسطين والعراق والسودان وتونس والجزائر والمغرب والعربية السعودية واليمن . وقد تم تبويب النصوص وفق مرحلتين الحركة القومية اللتين نوهنا بهما . وفي كل من المرحلتين تبويب مشابه يستند إلى الترسخ الإسلامي أولا ، والعصرية الليبرالية ثانيا ، وينطوي على التفكير السياسي والاجتماعي ، والدين والفلسفة ، والجمالية والثقافة .

تبويب منهجي صارم يغلب فيه الوضوح على مساهرة الحقيقة التشابكة . أما الاختيار ، وهو أصعب ما في عمل كهذا ، فيقول المؤلف أنه يستند إلى ثلاثة معايير : أولا تمثيلية المؤلفين داخل تيار فكري معين ؛ ثانيا ، تأثيرهم على وسطهم الاجتماعي ؛ ثالثا ، فدوذية الفكر أو الأسلوب . ما مقدار هذه المعايير من الصحة ؟ وهل هي التي يجب أن يتم وفقها الاختيار ؟ وهل تكفي منفردة أم مجتمعة لاعتماد نص من النصوص ومؤلف من المؤلفين ؟

يوم نسلم بأن الأفكار التي عرضها أنور عبد

المللك في مقدمة كتابه هي التي خضت العالم العربي وما زالت تحضه حتى اليوم ، يصبح بمقدورنا أن نوافقه على أن أكثر الذين احتفظ لهم بنصوصهم دور صفة تمثيلية أكيدة . ويوم نسلم معه بأن السياسة هي الثقافة والتفكير ، نوافقه في الإبقاء على من أبقى ، لا في تنحية من نحى .

ومهما يكن من أمر فإن استعراض أسماء المفكرين والأدباء والسياسة والمصلحين الأربعة وثلاثين يدل بوضوح على نقص في المعرفة يشرح التحيز والأغراض ولا يبررها . ذلك أن المؤلف ، على ما يبدو ، لا يعرف من العالم العربي معرفة حقيقية سوى مصر وحدها ، فاقطعها من كتابه مكانا يعادل ، منفردا ، مكان البلدان العربية العشرة الأخرى التي أثبت شيئا لبعض مثليها .

كما أن التحيز والأغراض بإديان في المتجه السياسي الذي يتجه المؤلف ، لأنه القاسم المشترك لجل ما تخيره صاحب الكتاب ، إذا لم نقل لكله . فإذا كان عنوان السلسلة الشامل « مختار الأدب العربي المعاصر » ، كان من الصعب أن نولي السياسة حصة الأسد ، حتى في حلقة « المقالات » هذه . هل الخطب السياسية هي « المقالات » في الثقافة العربية الحديثة ؟ هل أصحاب المحاولات الفكرية هم رجال الدول والمؤسسات والأحزاب السياسية ؟ والأدهى من كل ذلك هو اغفال الحركة المجرية اغفالا : كأن جبران والريحاني ، مثلا ، لم يخلفا أثرا في المكتبة العربية وفي الفكر العربي !

كما يغفل المؤلف قضية فلسطين . ليست هذه القضية محورا خطيرا الشأن بين محاور النضال السياسي العربي الذي أولاه عناية تفوق عنايته بشؤون الثقافة والأدب ؟ حتى ليظن القارئ الأجنبي أن المسألة الفلسطينية هامشية هي ، لا تستحق بنظر مثقفينا أن يفتح لها في كتاب رصين باب أو نافذة . هذه بعض مآخذنا على الكتاب في رثائته الشاملة . أما الترجمة فقد تكون حسنة في بعض النصوص التي لم نقابلها بأصلها . في حين أن ما قابلناه بالأصل قد بدا لنا مشحونا بالغالط ، مما يضيع المعنى أو يبدله تبديلا . والكريم ، هنا ، من لم يمدد .

رواد طريه